

الفصل الثالث

أدبنا والحياة في ظل الحكم الفردي

حصر النقاد اهتمامهم في بلاط الحكام ،
فاعتبروا شعراء الأمراء هم أمراء الشعر ،
وجعلوا تفوق الشاعر رهناً ببراعته في المدح ،
ولو لم يعبر عن معاناة وجدانية صادقة .
(ابن سلام : طبقات الشعراء)

واستحسنوا الكذب في الشعر ، وجعلوا نفاق
شاعر يمدح ثم يهجو مَن مدح ، دليل براعة
وآية اقتدار (قدامة : نقد الشعر)

وقرروا أن الطمع أول دواعي الشعر .
(ابن قتيبة : الشعر والشعراء)

ويقول تراثنا : إن الحياة لم تكن سياسة
فحسب ، وشعراء القصور لا يمثلون إلا بيئة
خاصة ، لها أوضاعها وقيمها وموازينها .

obeikandi.com

أوشك القرن الأول الهجري أن ينتصف ، وقد آن لفترة الحضرة أن تنتهى بمضى أولئك الذين عاشوا فى الجاهلية مدة طالت أو قصرت ، اللهم إلا قلة منهم بَعُدَ عهدها بالجاهلية وأمضت فى الإسلام ما يقرب من نصف قرن .

وكان المنتظر ، وقد جاء جيل نشأ وتربى وعاش فى الإسلام ، أن تسيطر القيم والمثل الإسلامية على الحياة الأدبية نتاجاً ونقداً ؛ وأن تتضاءل روح الجاهلية لكى تفسح المجال لسيطرة الروح الإسلامية وقيمتها .

لكن حادثاً خطيراً تدخل ، كان له أثره القوى فى توجيه الأدب مع تيار جديد ، غالب مسيطر ، بلغ من نفوذه أن لَفَّ المؤرخين والنقاد ، فلم يعودوا يلتفتون إلى سواه أو يملكون الإفلات من جاذبيته . .

ومن ذلك الحين ، بدأ تاريخ العرب والإسلام يسير مع هذا التيار ، سواء فى التاريخ العام ، أو التاريخ الأدبى .

من ذلك الحين ، تتابع المؤرخون حياة العرب السياسية والأدبية ، يأخذون اتجاهاً معيناً لا يحيدون منه ، كأنما شُدُّوا إليه بوثاق .

وتلقينا أقوالهم ميراثاً مفروضاً ، دون أن نلتفت إلى ما شابها من ضيق النظرة ، وقصور التناول ، أو عقم الفكر والوجدان .

وذلك الحادث ، هو انتقال الحكم إلى بنى أمية . .

به بدأ التاريخ العام ، يدور فى فلك الحكام وحدهم ، ويسير فى ركاب السياسة ، غير معنى بالحياة الاجتماعية للشعب .

وعلى نهجه سار التاريخ الأدبى ، فكان فى جملة محصوراً فى نطاق السياسة ، مسائراً لأحداث القصر ، لا يكاد يتجاوز جدرانها إلا إلى ما يتصل به من قريب أو بعيد .

وقد التفت بعض المفكرين إلى خطأ الاهتمام بالتاريخ السياسى وحده ، يدور فى فلك الحكام وحاشيتهم من الوزراء والقواد ، بمعزل عن حياة الشعوب والمجتمعات . والتفت بعض أساتذتنا إلى مثل هذا الخطأ فى تاريخنا الأدبى الذى

در مع السياسة حينما دارت . ومال مع ريجها أننى مالت ، فكان شعراء البلاط هم موضع عنايته ، وكانت النماذج التى يختمها القصر بخاتمه هى الرائجة المعتمدة .

وما كان تصحيح منهج الدرس الأدبى فى الجامعة . وتحريره من ضيق النظرة السياسية . إلا إنكاراً صريحاً لمسلك الذين شدوا الأدب إلى عربة السياسة وحدها . وهذه قضية تم الفصل فيها ، وقال المنهج الجامعى فيها كلمته ^(١) .

إنما أريد اليوم لألفت إلى ما يتصل بالقيم الأدبية التى رسّخها الزمن ، وكانت فى جملتها نابعة من مورد السياسة . صادرة عن تقاليد القصر ، معبرة عن وجهة نظر الذين لم يكونوا يتصورون الحياة دائرة إلا فى فلك الحكام والأمراء .

* * *

إن ولاية « معاوية » للحكم ، لم تكن مجرد حادث سياسى ، تنتقل فيه الخلافة من بيت إلى بيت ، وإنما كانت فى الواقع ، تحولاً خطيراً فى الحياة العامة للمجتمع الإسلامى .

والخلافة قد تولّاها « أبو بكر » رضى الله عنه ، وهو من بنى تيم بن مرة ، ثم تولّاها « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه ، وهو من بنى عدى بن كعب بن لؤى ، وتولّاها من بعده « عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية » رضى الله عنه وهو من بنى عبد شمس ، ثم آلت إلى « على بن أبى طالب » كرّم الله وجهه ، وهو مطلبى هاشمى ، فلم يحدث هذا الانتقال مثل ما أحدثه تولّى « معاوية » للحكم من تحول خطير .

ونقول مع ذلك ، إن هذا التحول قد سبقته بوادر يعرفها مؤرخو الإسلام فى ولاية « عثمان بن عفان » الأموى العبشمى ، وربما مضوا بها إلى قديم بعيد ، منذ بدأت المنافسة بين بنى هاشم وبنى عبد شمس ، على مراكز النفوذ التى كانت لأبيهم « عبد مناف بن قصى » تلك المنافسة التى لعبت دوراً ذا خطر فى تاريخ العرب ، قبيل الإسلام ، ثم فى الصراع الطويل بين المشركين والمصطفى ، ألفت فيه قریش بكل ثقلها . كراهة أن يستأثر بنو هاشم بهذا المجد من دونهم . وكان الشعر

(١) الأستاذ أمين الخولى : الأدب المصرى - ط دار المعارف بالقاهرة .

يتابع هذه البوادر ويسجلها ، وينفعل بها ويؤثر فيها ، على ما يشهد تراثنا الأدبي الذى عنى بجمعه قدامى المؤرخين وكتب السيرة ، كالتبرى وابن هشام . . .

ثم كان « معاوية » هو الذى وصل بهذه البوادر إلى مرحلة حاسمة فى تاريخ العرب والإسلام ، لا لأن الخلافة صارت إلى الأمويين ، فقد سبقه إلى ذلك « عثمان بن عفان » وهو من صميم البيت الأموى . ولكن لأن « معاوية » صيَّرها ملكاً وراثياً عضوداً لم يعرفه المسلمون من قبل .

ولأول مرة ، بدأ فى الإسلام نظام الحكم الفردى المطلق فى ظل الملكية الوراثية ، وظهر معه المجتمع الطبقي أثراً لتدفق الثروات فى خزائن الحكام والولاة ، ونتيجة لوضع اجتماعى يفرض على « الموالى » الرق والجزية . . .

وكما احتاج نظام القبيلة إلى الشاعر يؤيده ويحميه ، واحتاجت الأمة الإسلامية من عصر المبعث إلى تعبئة وجدانية يتولاها الشعراء . احتاج الوضع الملكى الجديد إلى الشعر يؤيده ويناضل عنه ويسمكّن له من نفوس الجماهير . .

وكان بيت المال فى أيدي الحكّام وولاتهم وعمالهم ، ومعه سيف السلطان ، فراحوا ينتزعون التأييد ، إما بإغراء المال أو برهبة السلطان .

روى « المبرد » فى الكامل : « أن معاوية لما نصب يزيد لولاية العهد ، أفعده فى قبة حمراء . فجعل الناس يسلمون على معاوية ثم يميلون إلى يزيد ، حتى جاء رجل ففعل ذلك ؛ ثم رجع إلى معاوية فقال : " يا أمير المؤمنين ، اعلم أنك لو لم تولّ هذا أمور المسلمين لأضعتها " والأحنف بين قيس جالس ، فقال له معاوية : ما بالك لا تقول يا أبا بجر ؟ فقال : أخاف الله إن كذبت ، وأخافكم إن صدقت . قال معاوية : جزاك الله على الطاعة خيراً . وأمر له بألوف . فلما خرج الأحنف ، لقيه الرجل بالباب فقال : يا أبا بجر ، إني لأعلم أن شرّ من خلق الله ، هذا وابنه ، ولكنهم قد استوثقوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال . فلنسنا نطعم فى استخراجها إلا بما سمعت » (١) .

ومن يومها ، بدأ أن « القصر » يحتكم فى سير الحياة ويمسك بأزمته ، ويسلط

يريق خزائنه على الشعراء فيعشى أبصار نفر منهم ، ويلوِّح لآخرين بسيف نغمته ، فيخضعون لإرادته إيثاراً للسلامة والعافية .

بدا كأن « قصر الحاكم » هو الدنيا . . .

أو هذا هو ما يمثله لنا التاريخ الأدبي لذلك العهد : فوجد الشاعر مرتين بالوصول إلى باب السلطان ، ومكانته الفنية يحددها القصر ، وحظوته برضى الأمير مضمونة ، طالما قصر وجدانه على تأييده والتغنى بسجاياءه :

« نصيب » الشاعر ، لم يكد يطمئن إلى شاعريته ، حتى حمل بضاعته وسار إلى « عبد العزيز بن مروان : وإلى مصر لأخيه عبد الملك » يعرضها عليه ، واثقاً أن مصيره مرتين بقبول الأمير لهذه البضاعة .

و « جرير » لم يكد يبلغ من « الحجاج » غاية الرضى بما أفرغه عليه من مدائح ، حتى طمح إلى القصر ، والتمس من « الحجاج » أن يكون وسيلته إلى « عبد الملك » فوفد الحجاج إلى عبد الملك « وفادته التي لم يفد إليه غيرها . فأهدى إليه جريراً ، فدخل عليه فأذن له في النشيد » (١) .

و « الأخطل » التغلبي « ما كان يطمع في أن يجد مكاناً في المجتمع الإسلامي ، لولا أن اتصلت أسبابه ببني أمية ؛ وصار نديماً لخلفائهم وشاعراً بللاطهم » (٢) .

وفتحت خزائن بيت المال على سعتها للشعراء الدعاة :

« جرير » لما وصل إلى عبد الملك وأنشده مدحته الحاثية :

أتصحوا أم فؤادك غير صاح عشيّة همّ صجُّوك بالروح

فلما وصل فيها إلى قوله :

تعزّت أم حزرة ثم قالت رأيت الموردين ذوى لقاح

تعلل وهي ساغبة بنيتها بأنفاس من الشيم القراح

سأمتاح البحور فجئني أذاة اللوم وانتظري امتياحي

ثقي بالله ليس له شريك ومن عند الخليفة بالنجاح

أغنى يا فداك أبي وأمي بسبب منك إنك ذو ارتياح

سأله عبد الملك : فهل ترويهامائة ؟

قال جرير : وهل إليها من سبيل جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين ؟
فأمر له عبد الملك بمائة ، وثمانية من الرعاء ! فذكرها جرير في مدحه
يزيد بن عبد الملك وهو خليفة فقال : (١)

أعطوا هنيئة يحدها ثمانية ما في عطائهم من سرف
وقدم « كثير » على يزيد بن عبد الملك وقد مدحه بقصائد جياذ مشهورة ،
فأعجب بهن يزيد وقال لكثير : احتكم !
فسأل كثير : وقد جعلت ذلك إلى ؟

أجاب يزيد : نعم !

قال الشاعر : مائة ألف !

فتساءل الخليفة : ويحك ، مائة ألف ؟ !

أجاب : على جود أمير المؤمنين أبغى أم على بيت المال ؟

قال يزيد : « ما بي استكثارها ، ولكني أكره أن يقول الناس : أعطى شاعراً
مائة ألف ! » . . ودفعها إليه (٢) .

وكانت المنافسة بين شعراء البلاط ، على القربى والرضى لا تهدأ ولا تنفد :
روى « أبو الفرج الأصبهاني » أن « عبد الملك » أنشد يوماً قول « كثير » في
مدحه بما كان من انتصاره على من نازعوا بني أمية على الخلافة والمالك :

فما تركوها عنوة عن مودة ولكن بحدّ المشرفى استقالها !

فأعجب به ، فقال له « الأخطل » : ما قلت لك والله يا أمير المؤمنين أحسن منه :

أهلّوا من الشهر الحرام فأصبحوا موالى ملك لا طريف ولا غصب !

جعلته لك حقاً ، وجعلك أخذته غصباً . قال عبد الملك : صدقت (٣) .

(١) طبقات ابن سلام : ١٠١ ط أوروبا . والشعر والشعراء : ٤٦٨/١ معارف .

وانظر القصيدة في ديوان جرير ، ٩٦ : ٩٨ الصاوى .

(٢) طبقات ابن سلام : ١٣٣ ط بريل .

(٣) الأغاني : ٣٨٨/٨ . ونقد الشعر لقدامة : ٣٦ .

وروى كذلك من أخبار « الأخطل » أنه قال ذات يوم لعبد الملك بن مروان :
« يا أمير المؤمنين ، زعم ابن المراغة - يعنى جريراً - أنه يبلغ مدحتك فى ثلاثة
أيام ، وقد أقمت فى مدحتك :

« خَفَّ القَطِينُ فراحوا منك أو بكروا . »

سنة . فما بلغت كل ما أردت » فقال عبد الملك : فأسمعناها يا أخطل .
فحصى ينشدها وعبد الملك يتناول لها ، حتى إذا فرغ من إنشاده ، قال له الأمير :
« ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ »
قال : « أكتفى بقول أمير المؤمنين ؟ » ^(١) .

ومنطق الخبر أن التنافس على مدح الأمير كان على أشده ، وأن الأمير كان
بحيث يصدر مرسومًا ملكيًا بإمارة شاعر . ويُسير المرسوم فى الآفاق !

• • •

وكما كان قصر الحاكم يتصرف فى منازل شعرائه ومراتبهم الشعرية ، ويوزع عليهم
حظوظهم من الشهرة والرزق . كان كذلك يتصرف فى شعرهم ويحدد لهم مجال القول .
وقصة الفرزدق ونصيب مع « سليمان بن عبد الملك » ذائعة معروفة : دخل « نصيب »
على سليمان وعنده الفرزدق . فاستنشد الخليفة الفرزدق وهو يتوقع أنه سينشده
مدحًا . لكن الفرزدق غفل عن المطلوب منه ، فأنشد مفتخرًا بقومه :

وركب كأن الريح تطلب عندهم لها ترةً من جذبها بالعصائب
سروا يخبطون الريح وهى تلفهم إلى شُعَبِ الأكوار من كل جانب
إذا آنسوا ناراً يقولون ليتها وقد خصرت أيديهم ، نار غالب

قالوا ^(٢) : « فأعرض سليمان كالمغضب . فقال نصيب : يا أمير المؤمنين
ألا أنشدك فى رويها ما لعله لا يتضع عنها ؟ فأذن له مولاه فأنشد :
أقول لركب صادرين لقيتهم قفا ذات أوشال ، ومولاك قارب
قفوا خبروني عن سليمان إننى لمعروفه من أهل "ودان" طالب
فعاجوا فأنثوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أننت عليك الحقايب

(١) الأغاني : ٢٨٧/٨ .

(٢) المبرد : الكامل (٢١٧/٢) رغبة الآمل . مع (الشعر والشعراء : ١/١١١ : معارف)

فتهللت أسارير سليمان وقال : يا غلام ، أعط نصيباً خمسمائة دينار وألحق
الفرزدق بنار أبيه « (١) » .

وما كان « نصيب » في مدحه ، أشعر من « الفرزدق » في فخره ، ولكنها
مقاييس السياسة ، تحدد للشاعر مجال القول .

وبمثل هذا غضب « الحجاج بن يوسف الثقفي » على « يزيد بن الحكم » وكان
الحجاج قد عهد له على فارس ، فأثاه يودعه . فقال له الحجاج : أنشدني -
وقدّر أنه يمدحه - فأنشده مفتخراً بأبيه :

وأبي الذي سلب ابن كسرى رايةً بيضاء تخفق كالعقاب الطائر
فاسترد الحجاج العهد منه . وقال لحاجبه : قل له : أورتك أبوك مثل هذا ؟
ولماذا كان « يزيد بن الحكم » قد غضب وقال يرد على الحجاج (٢) :
وورثت جمدى : مجده وفعاله وورثت جدك أعزاً بالطائف
فإن ذلك لا يمنع دلالة الخبر على أن الولاة كانوا يتأثرون بأمراء القصر الأموي ،
ويريدون أن يفرضوا على الشاعر مجال القول .

• • •

ومن ذلك أيضاً ما رواه ابن سلام :

« أنشد كُشَيْرَ عبد الملك مدحته التي يقول فيها :
على ابن أبي العاصي دلاص حصينة أجاد المُسدَّى سرداً وأذالها
يؤود ضعيف القوم حمل قتيها ويستضلع القرم الأشم احتمالها
فقال له عبد الملك : قول الأعشى لقيس بن معد يكرب ، أحب إلى
من قولك ، ألا قلت كما قال الأعشى :

وإذا تجيء كتيبة ملمومة خرساء يسخي الذائدون نهالها
كنت المقدّم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلماً أبطالها

(١ و ٢) ابن رشيقي : العمدة - ٤٤/١ .

- وانظر قصة سليمان مع الفرزدق في (الكامل للمبرد : ١٢٧/٢ رغبة ، والشمر والشعراء : ٤١١/١)

كلا . . لا يجدى شيء من هذا ومثله ، مع ما ترى من إصرار القوم على الحضارة حين صارت إلينا قيادتها في العصر الوسيط ، هوت بالفكر الإنساني إلى تهووش وانحلال ، وتنكبت كل طريق كان من الممكن أن يسلم إلى الأسلوب العلمى !!

* * *

ومع صوت « إسماعيل مظهر ، تلميذ يعقوب صروف » ارتفع صوت « سلامة موسى » الذى لم ير فى ماضينا العربى خيراً قط ، ولا وجد فى تاريخ الحضارة الإسلامية بذرة تصلح للبقاء ، بل إنه حين نشر كتابه (هؤلاء علموفى) لم يسمح لأى مفكر عربى أن يأخذ مكاناً ولو فى ذيل الموكب الجليل للمعلمى سلامة موسى : تولستوى وماركس وبافلوف ودستوفيسكى ، وفرويد وأدلر ويونج وهافلوك أليس ، إلى آخر القائمة الأجنبية التى ليس فيها اسم عربى واحد .

وكنا نسمع هذه الأصوات فى مطلع صبانا ، ومنا من نشأ - مثلى - فى بيئة دينية محافظة ، وصَلَّتْه بأعجام الحضارة الإسلامية وروائع التراث الفكرى والأدبى للعرب ، واستشرف لآفاق المنهج الإسلامى للمعرفة ، ووعى من آيات كتاب ديننا قيماً إنسانية ومثلاً علياً لا تطمح البشرية إلى أعز منها ، وحفظ كلمات كباراً لأئمة سلفوا ، قررت كرامة الإنسان وشرف العلم وحرية الكلمة ، من قبل أن تسمع الدنيا بهؤلاء الفرنجة الذين علموا السائرين غرباً !

ومنا من لم يتح له شيء من ذلك قط ، أثراً لنشأته فى بيئة متفرنجة مزهوة بعصريتها مفتونة بجديدها المحدث ، فهى تسلم عقلها وضميرها إلى رسل الغرب ، وترى فيهم أنبياء العصر !

* * *

وكان من الممكن أن يتيح لنا وعيُنا القوى هضم الثقافات الغربية دون اتخاذها أصلاً ننسى فيه أصلنا . كان من الممكن أن نسعى إلى بناء حياتنا الجديدة فوق أرضنا ، مع إخصابها بمستوردٍ من جديد الفكر والفن . .

لكن الذى حدث فعلاً هو أن الكثرة من أصحاب القديم جمدت على قديمها فى رجعية كافرة بالتطور ، ففقدت كل صلة بالعصر والحياة . كما أن الكثرة من

« فأتاه فأنشده :

هل تعرف الدارَ لأُمِّ الغمر دعُ ذا، وحَبَّرْ مِدْحَةً في نصرِ
فقال نصر : لا ذلك ولا هذا . . ولكن بين الأمرين !

وحين اقتضت إرادة القصر لفترة مؤقتة وفي ظرف خاص ، أن ترفض شعر المدح ، وتبعد عن مجلس الخليفة « عمر بن عبد العزيز » الشعراء الذين طالما فححت لهم الخزائن والأبواب ، راحوا يدورن مع الريح ، ويلتمسون الوسيلة إلى الخليفة الورع التقى ، ويستشفعون بجلسائه من الزهاد ، ليفتح لهم بابه الموصل ؛ فيقول « جرير » لعون بن عبيد الله متوسلاً : (١)

يا أيها الرجل المُرْخى عمامته هذا زمانُك ؛ إني قد مضى زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لآقيته أنى لدى الباب كالمصفود في قرنِ
لا تنس حاجتنا لآقيته مغفرة قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

وراج شعر الزهد والتدين في خلافة « عمر بن عبد العزيز » لأن هذا الشعر هو الصنف المرغوب في القصر . . .

وظهرت طبقة من الشعراء ، تجالس الخليفة وتنشده ما يرضيه ؛ منهم شاعر اسمه « سابق البربري » ما كنا لنسمع به لولا أنه وصل إلى مجلس الخليفة ، وأنشده مثل هذه الأبيات (٢) :

فكم من صحيح بات للموت آمنا أتته المنايا بغتةً بعد ما هجع
فلم يستطع إذ جاءه الموت بغتة فراراً ، ولا منه بقوة امتنع
فأصبح تبكيه النساء مقنعاً ولا يسمع الداعي وإن صوته رفع
وقرب من لحد فصار مقيلاًه وفارق ما قد كان بالأمس قد جمع
فلا يترك الموتُ الغنيَّ لماله ولا معدماً في المال ذا حاجة يدع

و « عبيد الله بن عبد الله » الذي كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول (٣) :

باسم الذي أنزلت من عنده السورُ والحمد لله ؛ أما بعد يا عمر !

(١) ديوان جرير : شرح الصاوي ص ٥٥٨ .

(٢) أبو نعيم الأصفهاني : حلية الأولياء ٣١٨/٥ ط السعادة ١٩٣٢ .

(٣) الحلية : ١٨٨/٢ .

إن كنت تعلم ما تأتى وما تذر فكن على حذر قد ينفع الحذر
 واصبر على القدر المحتوم وارض به وإن أذاك بما لا تشتهي القدر
 فما صفا لامرئ عيش "يسر" به إلا سيتبع يوما صفوة الكدر

~ ~ ~

أما الشعراء الذين طالما طرب خلفاء بني أمية - قبل عمر - على مدائحهم ،
 فما كان يعيهم ، وقد ألفوا نفاق القول وتزييف الشعور . أن يقولوا للخليفة التقى
 ما يرضيه ، وأن يغنوه بالنغمة التي تطربه ، ويعزفوا له على الوتر الذي يؤثر فيه !

قال « كثير » يمدح الخليفة عمر بن عبد العزيز :

وصدقتَ بالفعل المقالَ مع الذى أتيت فأمسى راضياً كلُّ مسلمٍ
 وقد لبستَ لبسَ الهلوكِ ثيابها تراءى لك الدنيا بكفٍّ ومعصمٍ
 وتومض أحيانا بعين مريضة وتبسم عن مثل الجُمان المنظم
 فأعرضتَ عنها مشمَّزاً كأنما سقتك مدُّوفاً من سمامٍ وعلقمٍ
 تركتَ الذى يفنى وإن كان موقفاً وآثرتَ ما يبقى برأى مصممٍ
 وأضررتَ بالفانى وشمَّرتَ للذى أمامك فى يومٍ من الشرِّ مظلمٍ !

إلى هذا المدى كان قصر الحاكم يحتكم فى تحديد صنف البضاعة الشعرية
 المطلوبة ، فيستجيب له من أصحابها من يستجيب !

وفى مثل تلك البيئة ، يروج النفاق والكذب والزيف ، ويدور الشاعر مع
 الريح : « فابن قيس الرقيات » مثلاً . يلازم مصعب بن الزبير أيام سلطانه
 بالعراق ، ويرفع عقيرته مشدداً :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماءُ
 ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ، ولا به كبرياء
 يتقى الله فى الأمور وقد أفـ لمح من كان همّة الانتقاء
 فلما قُتِل « مصعب » وقصَّى الأمويون على ثورة الزبيريين : استدار
 الشاعر نحو القصر الأموى . ووقف بباب « عبد الملك بن مروان » يملحه .
 معرّضاً بآل الزبير ، ممدوحيه بالأمس القريب (١) :

ما نقموا من بنى أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوك فلا تصلح إلا عليهم العرب !
إن الفنيق الذى أبوه أبو الـ عاصى ، عليه الوقار والحجب
يأتلقُ التاجُ فوق مفرقه على جبين كآته الذهب !

و « الراعى : عبيد بن حصين النميرى » وفد على عبد الملك بن مروان ،
بعد هزيمة الزبيرية - وكان عبد الملك ثقیل النفس عليه - فأشده متزلفاً : (١)

إني حلفت على يمينٍ برّة لا أكذب اليوم الخليفة قتيلاً
ما إن أتيت « أبا خبيب » وافداً يوماً أردت لبغيتي تبديلاً
ولا أتيت « نجيدة بن عويمر » أبغى الهدى فيزيدنى تضليلاً
أزمان قومي والجماعة كالذى لزم الرحالة أن تميل مملاً
فادفع مظالم عيَّلت أبناءنا عنا . وأنقذ شلونا المفلولا

فلما لم يجد من عبد الملك إقبالا ، عاد إليه من قابل مستعطفاً مستغيثاً (٢) .

و « أيمن بن خريم » لزم « عبد العزيز بن مروان » بمصر يمدحه ويشيد
بفضائله الفريدة ومآثره الغراء . ويؤيد طموحه إلى الخلافة بعد أخيه « عبد الملك »
وكان ينافسه عليها « بشر » أخوه . والوليد بن عبد الملك . فلما وفد « نصيب »
إلى قصر عبد العزيز بمصر وأنشده . سأل الوالى شاعره « أيمن » : كم تقدر ثمناً
للعبد ؟ أجاب « أيمن » مغيظاً : ثلاثون ديناراً : قال « عبد العزيز » : وإنه
ليقول الشعر ! فرفع « أيمن » السعر إلى مائة ولم يُخفِ ضجره . فراح « عبد العزيز »
يمن عليه ، أن تركه يؤاكله ويشاربه على ما به من وضح - برص - . وأيقن
« أيمن » أن أسهمه هبطت . وأن « الوالى » معجب بنصيب ، حريص على
جديد من النعم ؛ بعد أن استفرغ « أيمن » فيه مدائحه . . .

وخرج « أيمن » من القصر مغضباً . وهجر مصر إلى العراق ، يعرض بضاعته

(١) ابن سلام : الطبقات ١١٨ .

و « أبو خبيب » كنيه عبد الله بن الزبير ، و « نجيدة بن عويمر » تصنيف تحقير ، لنجدة بن عامر
من رؤساء الخوارج .

(٢) المرجع نفسه .

على « بشر بن مروان » منافس أخيه عبد العزيز ، وقد حدد الشاعر ثمن البضاعة فقال^(١) :

ولو أعطاك بشر ألف ألف رأى حقاً عليه أن يزيدا
وأعقب مدحتي سرجاً خلنججاً وأبيض جوزجانياً عقوداً
فإننا قد وجدنا أم بشر كأم الأسد مذكاراً ولوداً !
وكذلك حدد « نصيب » أجره ، فجعل الثناء على قدر العطاء ! فقال لمولاه عبد العزيز :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم منن غامره
فبابك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامره
وكلبك آنس بالمعتفين من الأم بابتها الزائره
وكفك حين ترى السائلين ن أندی من الليلة الماطره
فنك العطاء ومننا الثناء بكل محبرة سائره !
وقد جاء بها « ابن قتيبة » بين مختاراته في المدح^(٢) .

وهان على الشعراء أن يدوروا بمعاذفهم يطربون الحكام ، بل هان على « الفرزدق » - الذي عدوه أشعر طبقة - إذا افتخر - أن يجعل نفسه مضحكاً للسيد الأمير ، ويعلن هذا على ملأ من القوم .

يروون أن « سليمان بن عبد الملك » أتى بأسرى من الروم وعنده الفرزدق ، فقال له : قم فاضرب أعناق هؤلاء . فاستعفاه فلم يعنه ودفع إليه سيفاً كليلاً . فقام الفرزدق فضرب به عنق رجل منهم فبنا السيف ، فضحك سليمان ومن حوله . فقال الفرزدق^(٣) :

ما يعجب الناس أن أضحكت سيدهم خليفة الله يستسقى به المطر ؟

• • •

(١) قدامة بن جعفر : فقد الشعر ١١٤ ط ليدن .

(٢) الشعر والشعراء : ٣٧٤ / ١ .

(٣) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ٤٥٠ / ١ .

ونجم عن هذا الوضع شركثير ، أصاب الحياة الأدبية نتائجاً ونقداً ، ثم لم تستطع أن تنجو منه بعد ذلك :

فلقد تركز الاهتمام حول شعراء القصر الأموي ، مع أن الحياة لم تكن بلاطاً فحسب ، كما أن الحكم لم يَصِفْ للأمويين دون معارضة عنيفة حادة من العلويين ، والزبيريين ، والخوارج . وكان الصراع بينها وبين هذه الأحزاب يزلزل استقرارها ويهدد سلامتها . ولقد ظلت الزبيرية تؤرقها لمدى ثلاثين عاماً ، استأثرت فيها بالأمر في الحجاز والعراق ! ولم يهدأ للأموية بال طول حكمها من ناحية الشيعة ، والخوارج ، وخاضت معارك دامية لتستريح منهم ، فما زادتهم هذه المعارك إلا إصراراً عنيداً على المقاومة والمعارضة .

والشعر ، حمياً ، قد اشترك في ذلك الصراع ، وزاده حدة وضراوة .

وأخطر من هذا كله ، أن الموالي كانوا هناك ؛ يتعلمون تمرداً على وضعهم ؛ ويشنون من محنة النبذ ، ومن نظام الولاء الذي جعلهم رقيقاً في دولة ، دينها الإسلام الذي لا يعترف لعربي بفضل على أعجمي إلا بالتقوى ، وكتابها القرآن الكريم الذي يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ؛ إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وإذا كان « سحيم ، عبد بنى الحسحاس » قد فاضت نفسه بالمرارة ، وهو يعيش في ظل الخليفة العادل « عمر بن الخطاب » فقال في قصيدته الياثية التي أنشدها بين يدي عمر :

عميرة ودّع إن تجهزت غاديا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

.....

أشارت بمدراها وقالت لتربيهها أعبد بني الحسحاس يُّزجي القوافيا
رأت قتباً رثاً وسحق عباءة وأسود ، مما يملك الناس عارياً
يُرجلن أقواما ويتركن لمتى وذاك هوان ظاهر قد بدا ليا
فلو كنت ورّداً لونه لعشقتني ولكن ربي شاني بسواديا

أقول إذا كان شعر « سحيم » قد نضح بالمرارة في عهد أمير المؤمنين عمر

ابن الخطاب ، فكيف بالموالى من الفرس الذين أسلموا وفُرض عليهم الولاء وخضعوا لاضطهاد مرير من الدولة الأموية ؟

وهم لم يكونوا عبيداً أرقاء كسحيم ونصيب ، ولا كانوا من أصل مغفور ومنبت وضع . فكان شعرهم ، لو وصل إلينا ، جديراً بأن يعبر عن إنكار وضعهم المنبذ . لكن التاريخ الأدبي لم يحفظ منه إلا القلة النادرة . وقد يُفسّر هذا بمحاذاة عهدهم بالعربية ، وقد يفسر أيضاً بالكبت الذى فرضه عليهم اضطهادُ الأموية للموالى ، لكنى لا أمتنع أن يكون منهم من استطاع أن يُنفس بالشعر عن وجدانه المشحون بالتمرد والثورة ، ثم ضاع هذا الشعر فيما ضاع من تراث أدبي ، لم تكن السياسة لتجيزه

والقليل الذى وصل إلينا منه ، يعبر عن احتجاج على تفاخر العرب على الفرس ، وللفرس ماضيهم العريق وتراثهم الحضارى التليد ، أو كما قال « إسماعيل بن يسار النسائي » :

رُبَّ خالٍ مُتَوَجِّحٍ لى وعمٍّ ماجدٍ ، مجتدى ، كريم النصابِ
إنما سُمى الفوارس بالفرس س ، مضاهاة رفعة الأنساب

ضاع شعر الموالى أوصودر ، ولم يضع شعر « نصيب » لأنه كان من شعراء البلاط الذين استأثروا بالشهرة ، واشتهر معهم من شعراء الحزب الزبيرى « عبيد الله ابن قيس الرقيات » لأنه تنكر لماضيه وتعلق بركاب عبد الملك بن مروان قاتل مصعب . كما اشتهر من شعراء الشيعة ، « الكميت الأسدى » لأنه طوى هاشمياته وأقبل على أمراء القصر الأموى ، يحجو بمحاذاته فيهم هاشمياته فى الإمام على وبنيه ولو لم تتصل أسباب هؤلاء الشعراء بالقصر الأموى ، لكانوا مظنة أن يوضعوا فى منطقة الظل .

• • •

وما كانت قصور الحكام والأمراء والولاة ، من الأمويين ، إلا بيئة واحدة ، إلى جانبها بيئات أخرى تعرفها الحياة للعرب والمسلمين ، فى الشام والحجاز والعراق وما وراء النهر ومصر وإفريقية : بيئات شهدت نشاطاً أدبياً من نوع آخر غير ذاك النوع الراجح فى القصر ، وكانت لها قيم ومقاييس غير تلك التى يقررها ساسة الدولة ، وكانت

هناك مؤثرات أخرى غير السياسة ، منها وافد طارئ ، ومنها محلي أصيل ، تعمل عملها في الحياة ، وتتفاعل مع الأدب مؤثرة ومتأثرة .

كانت هناك بلا شك بيئة أخرى في العراق تتلقى روافد مما وراء النهر وتنفذ عليها تيارات عنيفة من الأعاجم ، تلتقي مع التيار العربي الوافد من الجزيرة بهجرة العرب إلى وادي دجلة والفرات .

وكانت هناك بلا شك أيضاً بيئة أخرى في مكة حول الحرم الأقدس ، تعيش على ذكريات أمجاد عريقة موغلة في القدم ، وفي المدينة ، دار الهجرة ، حول مسجد المصطفى ومثواه ، تعزز بمجد لها ديني ، وتغذيها ذكريات الجهاد المشهود ، وتضيئها وجوه كريمة ، من آل النبي صلى الله عليه وسلم ، والبقية الصالحة من صحابته ...

وفي صمم نجد كانت هنالك بيئة غير هذه وتلك . . بيئة بعيدة إلى حد ما عن التيارات الوافدة والطارئة ، تعيش على قيم موروثية نابعة من قديمها الجاهلي ، وتمارس الحياة حريصة ما استطاعت على تقاليدها ، محافظة على أعرافها ، مدافعة عن ميراثها وأوضاعها ضد أي غزو يأتي من وراء أسوارها .

وفي الشمال الإفريقي كانت هناك بيئة حديثة عهد بالعربية والإسلام ، قد تخلصت من آثار الرومان واليونان والوندال ، وبقي لها ميراثها الأصيل الذي صمد للغزو الأجنبي .

وفي وادي النيل ، كانت هناك بيئة لها ظروفها الاجتماعية وميراثها الحضاري ومزاجها الخاص . يلتقي فيها أهلها بالقبائل العربية التي وفدت إلى الأرض الطيبة ، في هجرات جماعية أعقبت الفتح ، وما لبثت أن استقرت هناك وامتزجت بأبناء البلد . وكانت ، وكانت . . في هذه الدنيا الواسعة العريضة ، التي يستحيل أن تحصرها جدران القصر الأموي في دمشق ، وقصر عتبة بن أبي سفيان أو عبد العزيز بن مروان في مصر ، وقصر أخيه بشر . أو زياد بن أبيه أو الحجاج في العراق ، ونصر بن سيار في خراسان

لكن عيون المؤرخين والنقاد شُدت إلى هذه القصور ، فلم تكد تعرف من أمر الحياة الأدبية غير البضاعة الواردة منها الرائجة فيها ، ولم تكد تحتفل بغير الشعراء الذين يبصمهم البلاط بخاتمهم !

أشهر النصوص الأدبية التي عرفناها من دمشق ، نقائض جرير والأخطل والفرزدق ، ومدايح شعراء الأمراء من أمثال كُشَيْر عزة ، ونصيب ، وابن قيس الرقيات .

وأشهر النصوص التي اختاروها من أدب العراق ، خطبة زياد بن أبيه أو خطب الحجاج ، ومدائح الشعراء فيه وفي بشر بن مروان .

وأشهر النصوص التي اهتموا بها من أدب مصر : خطب عتبة بن أبي سفيان واليها لأخيه معاوية . ومدائح الشعراء الوافدين على قصر عبد العزيز بن مروان . مثل : نصيب ، وأيمن بن خريم . وابن قيس الرقيات !

* * *

والذين لفتهم ازدهار فن الغزل في الحجاز بوجه خاص ، شدُّوه إلى عجلة السياسة وربطوه بأسبابها ، حين جعلوا ازدهاره نتيجة لسياسة أموية عزلت أبناء الأشراف من الحجازيين عن مهام السياسة وشؤون الدولة ، وحبستهم هنالك في فراغ يفسده الشباب ، وتفسده معه أموال أغدقها عليهم الأمويون في سخاء ! أرادت السياسة بذلك — فيما قالوا — أن تسلمهم إلى الفراغ والشباب والجدّة . وأرادت معه أن تقضي على ما لعاصمى الحجاز ، مكة والمدينة من نفوذ ديني كبير وسلطان روحي نافذ . حتى جاز للأستاذ المحقق «الشيخ عبد الله العلايلي» أن يذهب إلى أن الأمويين قد استأجروا طوائف من الشعراء والمغنين والمختئين — من بينهم عمر بن ربيعة — لأجل أن يمسحوا عاصمى الدين «مكة والمدينة» بمسحة لا تليق بهما ولا تجعلهما صالحتين للزعامة الدينية . وجاز للأستاذ العميد الدكتور طه حسين ، أن يقول : إن الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدرُوا هذه النعمة التي أُتيحت لهم حين حُفِظَ لهم شعرُ «عمر بن أبي ربيعة» كله أو أكثره، وهو الشاعر الذي يؤرخ لنا عصره^(١) .

على هذا النحو ، ربطوا ازدهار الغزل بالسياسة .

ولولا أن الخوارج خاضوا معركة السياسة ، لتاه تراثهم الأدبي في الغمار وغُيِّبَ عنا .

أما النشاط الأدبي في مصر والأقطار الإسلامية المتعربة ، فلم نعرف منه إلا ما دار في فلك الولاة . . .

وهكذا توارى نشاط البيئات غير السياسية ، الفكرية والاجتماعية والأدبية .

(١) عالجَت هذه القضية بمزيد توسع وبيان، في كتابي «سكينة بنت الحسين» ص ١٢٦ : ط الهـ .

فلم يهتم المؤرخون والنقاد بشيء منه إلا ما اتصل بالسياسة بسبب قرب أو بعد...
ولا أحد يجحد أثر السياسة في الشعر ، أو ينكر ما كان لبني أمية من نصيب
في ازدهاره ورواجه ، ولكن المنكر حصر الأدب في البلاط ، كأنه كل الدنيا .

* * *

ولم يكن هذا الذي أشرنا إليه من ضيق النظرة وانحصار الاهتمام في أدب
السياسة هو كل ما أصاب الأدب من شر ونكر ، بل أصابه منهما ما هو أفدح
حين احتكمت موازين السياسة في أقدار الشعراء ومقاييس الأدب ثم ظلت تسيطر
على أذواق النقاد وتوجه أحكامهم :

البيت الأموي ، قد عين شعراء الكبار : جريراً والفرزدق والأخطل ، أمراء
للشعر .

وجاء نقاد القرن الثاني ، فاعتمدوا هذا التعيين ، متأثرين بوضع القصر العباسي
في زمنهم ، وقد كان يحتكم في أقدار الشعر على نحو ما كان القصر الأموي يفعل ،
أو أكثر مما كان يفعل !

صنّف « ابن سلام » - ت : ٣٣٢ هـ - طبقاته ، فوضع هؤلاء الشعراء الثلاثة في
صدر الطبقة الأولى وجعل رابعهم « الراعي » لأن القصر أخرّته^(١) .

وجاء « الآمدي » : أبو القاسم الحسن بن بشر « في القرن الرابع ، فأفرد الشعراء
الثلاثة بالذكر ، وأبعد الراعي^(٢) .

وإلى اليوم ، ما نزال نزن بذلك الميزان كأنما لا تفصلنا عن ابن سلام والآمدي
قرون وقرون .

ولن شاء أن يقرأ كتب الأدب والنقد ، منذ عصر « ابن سلام » إلى اليوم ،
فسيرى أن جريراً والأخطل والفرزدق ، في موضعهم الأول لم يتغير . . .

وسيعرف القليل عن شعراء آخرين ، ممن اتصلوا بالسياسة من قريب أو
بعيد . وقد أخملت هذه القلة المشهورة بضع مئات من شعراء ذلك العصر لم نعنّ

(١) طبقات ابن سلام : ١١٨ .

(٢) الموازنة : ٤ ط حجازي ١٩٤٤ .

بجمع تراثهم المبعثر في ديوانى الحماسة : والشعر والشعراء ، والأغاني ، والكامل والجمهرة ، والأمالى ... لعلنا نرى فيهم غير ذاك الذى رآه من وضعهم في الظل ... وهم يعترفون أن جريراً وحده غلب ثمانين شاعراً ، ثم لم يذكروا لنا من هؤلاء الثمانين غير عددٍ لا يبلغ عشرة ، وأحملوا الباقين فأحملناهم خضوعاً لمشيئة زمانٍ غير زماننا !

و« جرير » عندهم أمدحُ العربِ ببيتِ قاله في مدح عبد الملك بن مروان :
 أَلَسَمَ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بِطُونِ رَاحٍ"
 وما نزال نردد هذا التقويم في عقم وجداني ، ونقدم لأبنائنا ، في كتب الأدب المدرسية ، تلك الحائية نموذجاً مختاراً في النصوص ، دون أن نشفق على أذواقهم ، وعلى تكوينهم الفني . بل دون أن نشفق على فهمهم لموضع الأدب والأدباء ، من مثل قول جرير في هذه القصيدة مستجدياً متسولاً :

تَعَزَّتْ أُمُّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ رَأَيْتُ الْمَوْرِدِينَ ذَوِي لِقَاحٍ
 تُعَلِّلُ وَهِيَ سَاعِبَةٌ بَنِيهَا بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشِّمِّ الْقِرَاحِ
 أَغْنَى يَا فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي بِسَيْبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو ارْتِيَاحِ !

ورائية الأخطل التي أطربت عبد الملك وأراد أن يكتب إلى الآفاق أنه أشعر العرب ، والتي احتفل بها قدامى النقاد أيما احتفال ، ما نزال حيث هي في موضعها لم تتغير ، كأنما لا يصدمنا منها ما فيها من بذاءة هجاءٍ مُسَفٍّ ، أخرج من نقله هنا !

ولأن « كُثَيْرَ عَزَّةَ » قد اتصلت أسبابه بالقصر الأموى وقال فيهم مدائح ، تقدم على « جميل » الذي لم يتصل بالسياسة ولا مارس الفن الذي يرضى الحكام ، وإن يكن جميل — باعتراف النقاد — أبرع فنّاً وأصدق عاطفة ! لكنها إرادة السلطان اعتمدها النقاد فاحتل « كثير » مكانه عندهم في الطبقة الثانية ، وتأخر « جميل » إلى الطبقة السادسة . وكأنما أراد « ابن سلام » أن يبرر الموقف فقال : « وكان لكثير في التشبيب نصيب وافر ، وجميل مُقَدَّمٌ عليه في النسب »

(١) ابن سلام : الطبقات ١٠٠ وفي (الشعر والشعراء : ٤٦٨/١) أن عبد الملك أجازة على هذه نصيدة الحائية مائة ناقة معها ثمانية من الرعاء !

وله في فنون الشعر ما ليس لجميل ، وكان جميل صادق الصبابة ، وكان كثير يقول ولم يكن عاشقاً ، وكان روايةً جميل .

ثم لم يلبث « ابن سلام » أن جاء بنماذج من فنون الشعر الأخرى التي لكثير فيها ما ليس لجميل ؛ وكلها في مدح ملوك بني أمية !

وبمثل هذا المدح ، فتحت أمام « كثير » الأبواب وهان على « ابن سلام » أن يضعه في الطبقة الثانية ويضع « جميلاً » في الطبقة السادسة . مع تقريره أن جميلاً كان صادق الصبابة ، وكان كثير يقول ولم يكن عاشقاً .

بل وجد « كثير » من الأقدمين من يقول إنه أشعر الإسلاميين ، فيما نقلوا عن « ابن أبي إسحاق » الذي وصفوه بأنه « عالم ناقد ، ومتقدم مشهور »^(١) .

ذلك « لأنهم مجمعون على أنه — أى كثير — أول من أطال المدح »^(٢) .

أما « جميل » : « فإنا رأينا أحداً أطلق على كثير أن جميلاً أشعر منه ، بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل »^(٣) .

ولم تشفع لجميل الأصالة الفنية المرتبهة بصدق المعاناة — وقد كان باعترافهم صادق الصبابة — لأن هذا الصدق الفني ، لا حساب له في بيئة لا يعنيه أن يقول الشاعر ما يجد ، وإنما الذي يعنيه أن يقول ما يرضى الساسة الحكام ، وهم يعرفون « أن جميل بن معمر ما مدح أحداً قط ، إلا ذويه »^(٤)

كما لم يشفع لدى الرمة ، « أنه كان أحسن الناس تشبيهاً ، وأجودهم تشبيهاً ، وأوصفهم لرمل وهاجرة وفلاة » بل أخرجه عن الفحول أنه « إذا صار إلى المديح والهجاء خاناه الطبع »^(٥) .

وثالثة الأثافي ، مما أصاب الحياة الأدبية من نكسر ، أن موازين السياسة وحدها هي التي كانت تحتكم في القيم الفنية للأدب ، وتسيطر على ذوق النقاد .

(٣) الأمدى : الموازنة ، ٧ .

(١ ، ٢) العمدة : ٦٢/١ .

(٤) ابن رشيقي : العمدة ٥١/١ .

(٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ٤١/١ .

فالفنون الشعرية التي أجازها السلطان ، كانت تحدد مجال الشعر وأغراضه - عند من حصروا الدنيا بين جدران القصر .

فلأن الساسة كانوا يحتفلون بالمدح والهجاء ، وُجد من النقاد القدامى قوم يقولون : « الشعر كله نوعان : مدح وهجاء ! »^(١) .

ولأن شعراء القصر كانوا يصدرون فيما يقولون عن رغبة أو رهبة ، جاء نقاد فحسروا فيهما مثيرات الوجدان وبواعث النشاط الأدبي^(٢) ! وقرر آخرون أن « الطمع أول دواعي الشعر »^(٣) .

والرغبة عندهم ، لا تعنى غير الطمع في عطاء ذوى المال ورضى أصحاب السلطان . بدليل أنهم حصروا مجالها الشعرى في المدح والشكر أو كما قالوا : « فع الرغبة يكون المدح والشكر »^(٤) .

والرهبة في حسابهم ، لم تكن تعنى سوى الخوف من سطوة حاكم أو غضب أمير ، بدليل حصروهم مجالها الشعرى في الاعتذار والاستعطاف^(٥) .

وإذا سمعتمهم يقولون : « الفقر آفة الشعر » فلا تحسبهم التفتوا إلى جناية الطمع على فنية الشاعر ، حين يضطره إلى أن يقول ما لا يجد . ولا تظنهم قدروا إفساد الفقر للشعر ، حين جعل الشعراء مرتزقة مأجورين . وإنما الفقر آفة الشعر عندهم « لأن الشاعر إذا صنع القصيدة وهو في غنى وسعة نقّحها وأنعم النظر فيها على مهل . فإذا كان مع ذلك طمع غنى ، قوّى انبعاثها من ينبوعها . وجاءت الرغبة بها في نهايتها محكمة . وإذا كان فقيراً مضطراً رضى بعضو كلامه ، وأخذ ما أمكنه من نتيجة خاطره ، ولم يتسع في بلوغ مراده ولا بلوغ مجهود نيته ، فجاء دون عادته في سائر أشعاره . وربما قصر عن هو دونه بكثير »^(٦) .

وفي مقاييسهم أن مدائح « الكنيت » في بني أمية أجود من هاشمياته . مع تقريرهم أنه « كان يتشيع ، وينحرف عن بني أمية بالرأى والهوى »^(٧) ولا يرى

(١) ابن رشيق : العمدة : ٧٨/١ .

(٢) ابن رشيق : العمدة : ١٢٤/٢ .

(٣) الشعر والشعراء : ٢٤/١ . (٤ ، ٥) : العمدة : ٧٧/١ .

(٦) ابن رشيق : العمدة : ١٤٣/١ .

(٧) ابن قتيبة : الشعر والشعراء : ٢٥/١ .

« ابن قتيبة » علة لحدودة مدائحه « إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة » .

و « ذو الرمة » يؤخره عندهم عن الفحول أنه « إذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع » على ما نقلنا من كتاب (الشعر والشعراء) .

كأنما كان القصور في المدح والهجاء ، حيث يخون الطبع ، جريمة لا تغتفر عند القوم !

وكأنما كان لا يكفيه أن يتفوق على كل الشعراء فيما يواتيه طبعه عليه من فنون القول !

وبقي أن نسأل : أين عندنا موضع « ذى الرمة » وغيره من الشعراء الذين كانوا إذا صاروا إلى المديح خانهم الطبع ؟

هل تزحزحوا عن أماكنهم التي حددوها لهم « ابن سلام » و « ابن قتيبة » في العصر العباسي ؟

هل فكر دارس منا ، في العناية بالتراث الفني لغير شعراء السياسة ، ووزنه بمقياس غير ذلك الذي ورثناه من قدامى النقاد ؟

لا أدري ، فهل من يدري ؟

* * *

وأضلتهم مقاييسهم النقدية ، فلم يدركوا أن الصدق الوجداني عنصر أصيل جوهرى في الفن ؛ ولم يلتفتوا إلى أن الشاعر حين لا يقول عن طبع ويصدر عن وجدان ، فمقدّم ما به قوام الأصالة الفنية « فأعذب الشعر أكذبه » عند من وصفهم ، قدامة بن جعفر بأنهم : « أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً » ^(١) .

والآمدى يقول : « الشاعر لا يطالب بأن يكون قوله صادقاً » ^(٢) .

ومن فضائل الشعر عندهم : « أن الكذب الذي أجمع الناس على قبحه

(١) نقد الشعر : ٢٦ .

(٢) الموازنة : ٣٩٥ .

حَسَنَ فيه . وحسبك ما حَسَنَ الكَذِبَ واغتفر له قبحه » كما قال ابن رشيق القيرواني في « باب فضل الشعر » (١) .

والقلو ميزة تُحَسَّبَ عندهم للشاعر ، كما قرر « قدامة بن جعفر » (٢) .

ومناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين ، مدحاً وذمّاً ، غير منكر عليه ولا معيب من فعله إذا أحسن المدح والذم ، بل ذلك — عند قدامة — « يدل على قوة الشاعر في صناعته واقتداره عليها » ! (٣)

ومداراة السلطان واجبة ، والتصدي لمعارضته حمق ، حتى لو كانت المعارضة دفاعاً عن مبدأ ، واستبسالاً في سبيل عقيدة ؛ كالذي كان من الحوارج حين لم يروا الحكم إلا لله وحده ، فاستحقوا بذلك إغفال نقاد مثل « ابن رشيق » يقول : « وأحمق الشعراء عندي من أدخل نفسه في هذا الباب أو تعرض له — يعني للسلطان — وما للشاعر والتعرض للتحوُّف ! وإنما هو طالبُ فضل ، فلم يضع رأس ماله ؟ وكل شيء محتمل إلا الطعن في الدول ، فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة ، فتعصبُ المرء لمن هو في ملكه وتحت سلطانه ، أصوبُ وأعذرُ له من كل جهة » ! (٤)

• • •

(٢) نقد الشعر : ٢٦ .

(٤) العمدة : ٤٥/١ .

(١) العمدة : ٧/١ .

(٣) نقد الشعر : ٤ .

وبعد فهاذا أردنا بكل هذا الحديث الطويل عن الشعر في البيئة السياسية ؟
أردنا لنقول :

— إن الشعر ظل ، على العهد به منذ كان ، سلاحاً خطراً تحسب له الدولة الجديدة ألف حساب !

— إن شراء السياسة لألسنة الشعراء وضمايرهم ، دفع إليه أنها كانت في أشد الحاجة إليهم ، يعثون لها وجدان الجماهير ويوجهون الرأي العام .

وكان الشعراء يعرفون حاجة الدولة إليهم فيغالون في بضاعتهم ، ويطلبون لها الثمن الغالي .

— إن الشعر سار مع الحياة ، فحين كانت القبيلة نظام المجتمع السائد ، كان الشاعر أداة نصرتها ، وعندما جاء الإسلام يجمع الأمة تحت لواء التوحيد ، كان الشاعر لسان هذه الدعوة عن عقيدة وإيمان ، ثم تطور الوضع بالمجتمع العربي بفعل دواعٍ قهرية ، وأثرًا لظروف ألجأت إلى تركيز السلطة ، بعد أن اتسعت الدولة بالفتوح الإسلامية وضمت شعوباً تفاوتت ميراثها من نظم الحكم ، فوجد النظام الجديد في « دمشق » عاصمة الدولة ، شعراء الذين يدعون له وينصرونه ، عن رغبة أو رهبة . . .

— إن تصدع الوضع الاجتماعي بالترفة العنصرية ، والعصبية المذهبية والتمايز الطبقي ، تحت الحكم الفردي المطلق ، نشأ عنه انحراف في خطير ، حين غلب أكثر الشعراء على وجدانهم وضمايرهم وألستهم ، فانساقوا — تحت ضغط الرهبة أو الرغبة — يقولون ما لا يجدون ، وشاع النفاق والتزييف الوجداني ، والمبالغات المسرفة ، والدعاوى الباطلة . وبقدر ما كانت السياسة بمعزل عن الشعوب ، كان الأدب مسجلاً لتلك العزلة . فالذين وصلوا من الأدباء إلى حاشية السلطان ، كانوا ظلاً له وصدى ، ففتحت لهم مع أبواب القصور ، أبواب التاريخ الأدبي .

والذين عصمتهم قوة ضمايرهم وأصالة فنيهم من الانسياق وراء التيار الجامح ، هبطت أسهمهم في سوق القوم ، فضاع منهم من ضاع في الغمار .

— إن القيم الأدبية ، للشعر وأصحابه ، خضعت لاحتمام الموازين المتأثرة بالتيار السياسي الغالب ، فوجهت ذوق النقاد الأولين ، وقد عاشوا في مجتمع طبقي متصدع ، ثم تركت ميراثها يحتكم في الأدب ، نتاجاً وذوقاً ، لمدى عصور وأجيال